رثاء المدن في الشعر الجزائري القديم ابن خميس أنموذجا-دراسة فنية-

درار نزيهة

أ. د حطري سمية

-المركز الجامعي بلحاج بوشعيب-عين تيموشنت

ملخص:

تناولت في هذه الدراسة رثاء المدن في الأدب الجزائري القديم "ابن خميس أنموذجا"، فتعرضت إلى بعض المدن الجزائرية، واستهللت الدراسة بتيهرت، طبنة، المسيلة، القلعة ، بجاية وتلمسان، ثم انتقلت إلى الدراسة الفنية، فوقفت على نصّ ابن خميس التلمساني في رثاء تلمسان حيث جمع في هذه القصيدة بين الرثاء والمدح والحنين، ودلّت النتائج على وفاء الشاعر الجزائري القديم لبلده.

الكلمات المفتاحية: الرثاء، المدن، الشعر الجزائري، تلمسان.

Résumé :

Dans cette étude, j'ai étudié la lamentation des villes dans la vieille littérature algérienne, "Ibn Khamis", et j'ai visé quelques villes algériennes en commençant par Tehret, Tabaneh, Messila, kala'a, Béjaïa et Tlemcen. Puis je suis passé à l'étude technique, et je me suis tenu sur un texte d'Ibn Khamis Tlemceni dans la lamentation de Tlemcen où il a recueilli dans ce poème entre les lamentations, les éloges et la nostalgie. Les résultats ont montré l'accomplissement du vieux poète algérien envers son pays.

Les Mots Clés: Lamentations, villes, Algérie, Tlemcen

تناول شعراء الجزائر القدامى شعر الطبيعة فقد ساعدهم على ذلك جمال الجزائر الخلّاب، فكانت مثيرة للمدح والوصف والحنين، ولا نعدم في هذا المجال رثاء المدن نتيجة الفتن والحروب، فقد تعرّض الشعراء للمدن وبكوها بحرقة ومن أولئك: ابن رشيق، ابن خميس، الثغري، أبو حمو موسى، المنداسي، وبكر بن حماد.

1- رثاء المدن الجزائرية القديمة:

المدينة هي مسكن الإنسان الطبيعي وهي«المكان الإنساني الأفضل والمبنى لسعادته، شأنها في ذلك شأن كل تجمّع بشري كالقرية أو البادية في أول الأمر»[1]، فهي« رمز للمكان ومركز كبير للتجمع البشري يضم بين جنباته طبقات متباينة من الناس، يغلب عليها الطابع المادي بشكل عام»[2] ،وبناء على هذا السّياق فالمدينة هي المكان الذي يضمّ عددا من الأفراد يختلفون حسب طبقاتهم، و يغلب عليهم الطابع المادي.

فالمتتبع لدواوين الشعر العربي يتبين مدى سيطرة هذه الظاهرة واحتلالها لحيز أكبر في جسد القائد إذ أن كثير من الشعراء قد واجهوا في قصيدة أو أكثر موضوع المدينة[3]. وبناء على ما تقدم، فالمدن المغربية تبدأ« بالفتح الإسلامي وبارتباط الصلة بين هذه البلاد ومراكز الحضارة الإسلامية في الشام ثم في العراق»[4]، فقد رثى الشعراء المدن وبكوها حرقة ومن ذلك:

1- "تيهرت أو تاهرت":

جاء في معجم البلدان : تاهرت بفتح الهاء وسكون الراء و تاء فوقها نقطتان؛ اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب، يقال: لإحداهما تاهرت القديمة وللأخرى تاهرت المحدثة، بينهما وبين المسيلة ست مراحل، وهي بين تلمسان وقلعة بني حماد وهي كثيرة الأنداء والضباب والأمطار، حتى إن الشمس بها قل أن ترى »[5].

وكانت مدينة "تيهرت" معروفة باسم "عراق المغرب" أو "بلخ المغرب" لانتشار المعرفة بها، حيث رثى "بكر بن حماد" تيهرت بعد خرابها واستلاء العبديين عليها سنة 296ه، وهي نفس السنة التي توفي فيها شاعرنا بعد أن فقد ابنه في الحادث الأليم، يقول:[6]

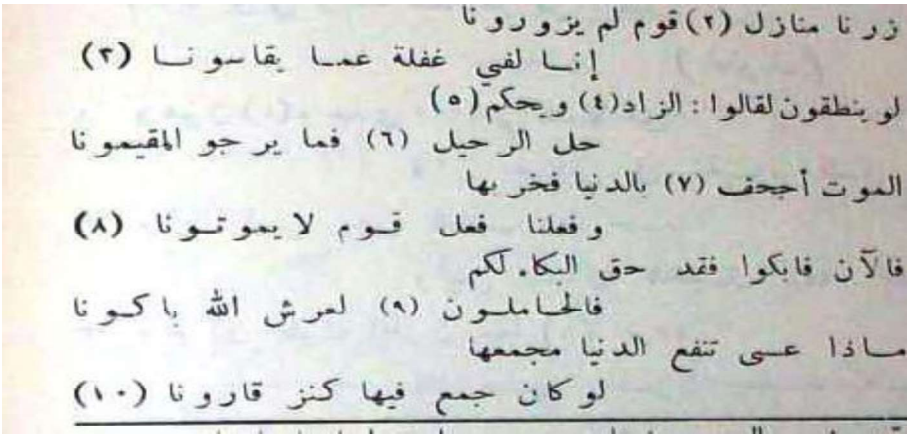
زرنا منازل (٢) قوم لم يزورونا
إنا لفي غفلة عما يقاسونا (٣)
لو ينطقون لقالوا : الزاد(٤) ويحكم(٥)
حل الرحيل (٦) فما يرجو المقيمونا
الموت أجحف (٧) بالدنيا فخربها
وفعلنا فعل قوم لا يموتونا (٨)
فالآن فابكوا فقد حق البكاء لكم
فالحاملون (٩) لعرش الله باكونا
ماذا عسى تنفع الدنيا مجمعها
لو كان جمع فيها كنز قارونا (١٠)

يتحدث شاعرنا عن أهل الدنيا وعن القبور والديار التي صارت خرابا وعما يكابدون من الآلام والشدائد وكأننا في غفلة عنهم، فالسفر الطويل آت لا محالة والموت أهلك واستأصل أهل الدنيا فإذا حل الرحيل فماذا عسى تنفع الدنيا ولو كان من قوم قارون وقد مزج بكر بن حماد الرثاء بالزهد، فبكى تيهرت حين صور وقوفه أمام القبور. يقول[7]:

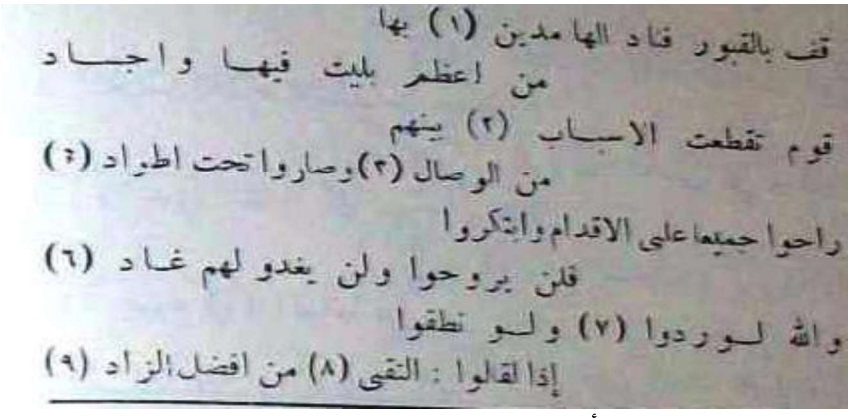
قف بالقبور فناد الها مدين (١) بها
من اعظم بليت فيها واجساد
قوم تقطعت الاسباب (٢) بينهم
من الوصال (٣) وصاروا تحت اطواد (٤)
راحوا جميعا على الاقدام وابتكروا
فلن يروحوا ولن يغدو لهم غاد (٦)
والله لو ردوا (٧) ولو نطقوا
إذا لقالوا : التقى (٨) من افضل الزاد (٩)

راح بكر بن حماد ينادي الأموات، حيث انقطعت بينهم المودة والوصال، فصاروا تحت الجبل العظيم فانقطع ذهابهم وإيابهم حتى ولو ردوا إلى الحياة من جديد لاختاروا أفضل الزاد.

يقول في موضع آخر[8]:

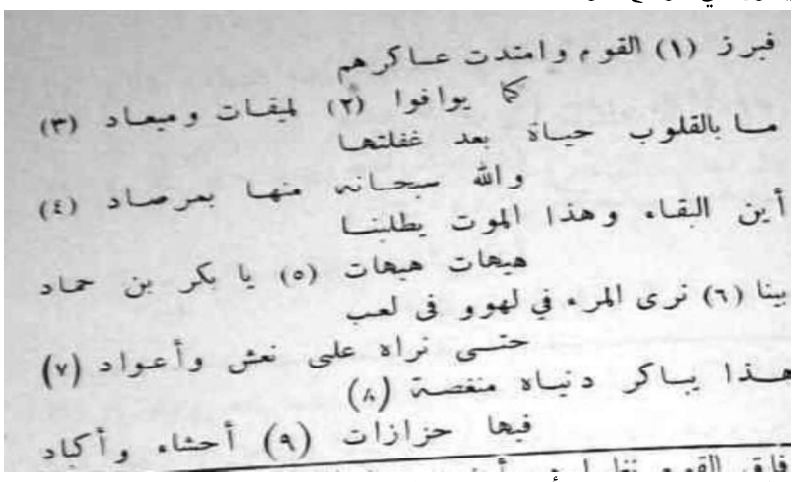
فبرز (١) القوم وامتدت عساكرهم
كما يوافوا (٢) لميقات وميعاد (٣)
ما بالقلوب حياة بعد غفلتها
والله سبحانه منها بمرصاد (٤)
أين البقاء وهذا الموت يطلبنا
هيهات هيهات (٥) يا بكر بن حماد
بينا (٦) نرى المرء في لهو وفي لعب
حتى نراه على نعش وأعواد (٧)
هذا يا بكر دنياه منغصة (٨)
فيها حزازات (٩) أحشاء وأكباد

شبّه الشاعر في هذه الأبيات كثرة العاكر حين استعراضها بكثرتها حين اجتماعها في ميعاد الحج أو البعث، كما أنّ اللّه عزّ وجلّ لا يخفى عليه شيء من أفعال العباد لقوله تعالى:[**إِنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصَادِ**][9]، فأين البقاء والموت يطلبه، وكأن شاعرنا يخاطب نفسه، وبينما هو في لعب ولهو يأتيه الموت فجأة. وقد سيطر على شاعرنا المعجم الديني:الموت، الدنيا، الميعاد، المرصاد، حياة، اللّه...

2-"طبنة":

يقول "ياقوت الحموي" في شأن مدينة طبنة: «بضم أوله ثم السكون ونون مفتوحة، وهي فيما أحسب عجمية ومثلها في العربية الطبنة لعبة للأعراب، وهي خطة يخطواتها مستديرة وجمعها طبن و طبنة : بلدة في طرف إفريقية مما يلي المغرب على ضفة الزاب فتحها "موسى بن نصير"، فبلغ سبيلها عشرين ألفا وهرب معهم "كسيلة"، وسورها مبني بالطوب، وبها قصر وليس بين القيروان وسلجماسة مدينة أكبر منها»[10].

يقول أبي "الفضل عطية الطبني" في رثاء مدينته الحبيبة "طبنة":

سِرْنَا وَ قَدْ حَلَّ بِقُرْبِ طبْنَــة وَ صَارَ مِنْهَا أَهْلُهَا فِي مِحْنَة[11]

حيث جمع دمار المدينة في كلمة واحدة وهي محنة.

3-المسيلة: يمثل هذه الفترة الشاعر "ابن هانىء الأندلسي"، يقول متحسرا على فراق جنات عدن:

خَلِيلَيَّ أينَ الزابَ مِنيّ وجَعفرٍ وجَنَّاتُ عدنٍ بثّتْ عنها و كوثرا

فَقبْلِي نأى عن جنةِ الخلدِ آدم فما راقه منْ جانبِ الأرض مَنْظَرا[12]

فقد فارق الزاب ونهرها الكوثر كما فارق سيدنا آدم جنة الخلد من قبله، فما راقه من جانب الأرض منظرا[13].

4-القلعة وبجاية:

كان العصر الحمادي عصر النضج الأدبي والثقافي« وقد أسسها حماد بن بلقين سنة 398ه في مكان طويل جنوب برج بوعريريج، ودامت في ازدهار إلى أن خربها الموحدون»[14]، وأشهر من نبغ في هذا العهد "محمد بن حماد"، من شعره في رثاء بلدته:

أيْنَ الْعَرُوسَانِ لَا رَسْمٌ وَ لَا طَلَلُ فَانْظُرْ تَرَى لَيْسَ لا السَّهْلُ وَ الجَبَلُ

وَ قَصْرُ بَلاَّرَةَ أوْدَى الزمَانُ بِهِ فَأَيْنَ مَا شَادَ مِنْهُ السَّادَةُ الأَوَلُ[15]

ثم ينتقل إلى قصر الخلافة وهو يتساءل عمّا أصبح عليه قصر حماد فليس له رسم ولا طلل ولا أثر باق، يقول:

قَصْرَ الخِلافةِ أين القَصرُ مِنْ حربِ غير اللُّجينِ وفي أرجاؤها زحلُ

ليس يُبْهِجُني شيء أســـــــــــرُّ به مِن بعدِ أن نَهجْتَ بالمنهجِ السَّبيلُ

وقد عفا قَصر حَمَّاد فليس له رسمٌ ولا أثرٌ باقٍ ولا به طللُ[16]

ثم يواصل بكاءه متذكرا مجالس قومه، وقد ذهب الزمان بهم حتى المكان المقدس قد بلت آياته:

وَمجلسُ القومِ قد ذهبَ الزّمانُ بهِ بِحادثٍ قلّ فيه الحادثُ الجللُ

وإنَّ في قَصرِ قَصرُ الملكِ مُعَبِّرا لَن تَعْـــــرُرهُ الأيَّـــــامُ والـــــدُّولُ

وما رسومُ المنارِ الآن مَائِلـــــةً لكنهـــا نبذٌ يجْري بهـــا المثَـــلُ

حَتىً المصلَّى بلتْ آياتها وعَفتْ إلاَّ جِدارا وما طَلَّتْ به الطَلَلُ[17]

ينتقل شاعرنا من القلعة إلى وادي الهوى –بجاية- ويتمنى لو يبيت ليلة فيها ولو يرد عليه السلام ليبرد حر قلبه، وحتى لو فرضت عليه الأيام السكن في غير موطنه فتضل بلدته بقاء الطالعات الأوافل، يقول:

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَ لَيْلَـــــةً بِوادِي الهَوى مَا بين تِلكَ الجَداوِلِ

وهَلَ أَرِدنَ عين السَّلامِ على الصَّدى فابْرِدْ من حرِّ الضّلوعِ النّواهِلِ

فأن ثَنتْ الأيام عنها اعْتنـــى وأنزلتني في غيرِ تلك المنازلِ

فصَبرٌ جميلٌ غير أن صِباتي ستبقى بقاءَ الطَّالِعاتِ الأوافلِ[18]

ففي هذه الأبيات مزج الشاعر بين الرثاء والحنين.

5-وهران: ومما قيل في رثاء وهران قصيدة محمد بن محمد بن علي بن سيدي المهدي بعد أن ساءت أحوالها يقول:

وهَلْ طَاوَعَتْ (وهران) قَبْل مُمَلَّكًا سِوَاهُ فَأَضْحَى أَنْفُهَا وَهُوَ راغمُ

فكَمْ سَامَهَا مَنْ لاَ يُنَاهِضُهَا وَكَمْ حَوَاليْ حِماَها حَامَ بِالزُّورِ حَائِمُ

تَمَلَّكَهَا حِزْبُ الشَّقَاءِ وَلَم يَكُـــــــنْ زَمَانًا لِحِزْبِ الحَقِ عَنْهَا مُحَاصِمُ

بهَا يُسْمَعُ النَاقُوسُ مِنْ نَحْوِ فَرْسَخٍ ومِنَ لُعَـــةِ الكُفَّـــارِ فيهَا تَراجِـــــمُ

وَفي كُلِّ يومٍ صَيحةٍ من خُيولها يئُوخُ لها الإسْلامُ وَالشِّركُ بَاسمُ[19]

يصور لنا الشاعر معاناة المسلمين في وهران وإحساسهم بالظلم والشقاء وعدم قدرتهم على صدّ الكفار.

يقول "محمد عبد المؤمن" :

نَادَتْك وهْـــران فَـــلَبِّ نِداءَها وانزِلْ بها لاَ تَقْصُـــدْنَ سوَاها

وتَصرَّفُوا فِي المُسْلِمِينَ بِمَا غَدَا أَعْجُوبَةً لِمنِ اغتدَى يَرْعَاهَا

أَضْحَى الصَّلِيبُ مُؤَيَّدا والدِينُ قَدْ دَرَسَتْ مَعَالِمُهُ فَلَسْتَ تراَهَا

جَعَلُوا بِهَا النَّاقُوسَ فِي أَوْقَاتِهِمْ بَدَلَ الأَذَانِ وَغَيَّرُوا مَعْنَاهَا

كَمْ مِنْ أَسِيرٍ حَوْلَهَا لا يُفْتَدَى كَمْ مِنْ فَقِيرٍ حَلَّ فِي مَثْوَاهَا

يَا أيهـــا الملك الـــذي أيّامـــهُ غُرَرٌ غَدَتْ بكماله تتبَاهَى[20]

تألم الشاعر لما أصبح عليه الإسلام، فأضحت الكنائس بديلا للمساجد، والصليب مؤيدا، وجعلوا الناقوس مكان الآذان في أوقاتهم.

ووقف " محمد بن محمد الثغيري الجزائري أبو عبد اللّه" وقفة تأمل لما آلت إليه مدينته، متحدثا عن حصار الكفار والمشركين لوهران:

وَقَهْـــر القوم اللِّئام الفُجَرة وَرفْعِ الإسلامَ فوقَ الكُفْرةِ

يَا سَائِلاً عَمَّا بِوَهارن ظَهَرَ مَنْ أَخَذَهَا وَفَكَهَا كَمَا اشتهَر
أَخَـذَهَا الكُفَّـارُ بِالثبـاتِ فِيمـا رَوَيْنَاهُ عـن الثِقَات
سنةَ أَرْبَـعٍ وعَشْرَةَ مَضتْ مِنْ بَعْدِ تِسْعُمَائَةٍ قَدْ كَمُلَتْ
فَمَائتَان مَعَ خَمْسَة سِنِينَ عَدَدٌ مَكَثَهَا بِأَيْدِي المُشْرِكِين[21]

6-تلمسان:

يقول "أبو حمو موسى"[22] متحسرا على ترك تلمسان لبني مرين، وعلى الأيام والليالي التي قضاها بمدينته التي بناها جدّه الملك المعلا:

ساكناها ليالي آمنينا وأياماً تسرّ الناظرينا
/ بناها جدّنا الملك المعلاّ وكنا نحن بعض الوارثينا
فلما أن جلانا الدّهر منها تركناها لقوم آخرينا

ويذكر صاحب كتاب طلوع سعد السعود أن هذه الأبيات وجدها أبو فارس المريني معلقة على حائط قصر الإمارة، فأمر بتبديلها، فقالوا[23]:

سكّناها ليالي خائفينا وأياماً تسوء الناظرينا
بناها جدّنا شيخ المعاصي وكنّا نحن شرّ الوارثينا
فلمّا أن جلانا السيف عنها تركناها لقوم غالبينا

يصور لنا المنداسي معاناة المجتمع التلمساني المتمثلة في صور القتل، وتيتم الأولاد، وقتل فحول العلم، وتأييم النساء التي نفذها الأتراك بفتوى من ابن زاغو، يقول:

قَتَلتْ فُحولَ العِلمِ صَبْرا وَلم تَزَلْ عَلَى عَهْدِكَ المَعلومِ في الزَيغ هَيمَانَا
فَأَيَّمْـت بالفَتْوى نِسـاءً كريمـة وأَيْتَمـتَ بالقَـولِ المَلّكِ وِلْـدَانَا
وقَال اقتلوا فالقَتلُ يَردَعُ غيرهُم وصَحَّحَ مِنْ نَذْلِ الظَّلاَلَة بُطْلاَنَا[24]

ولا يمكن في هذا المجال إغفال شاعر تلمسان الأكبر:" الإمام الصوفي أبي عبد اللّه محمد بن خميس التلمساني".

2-الدراسة الفنية:

- **-المعجم الشعري**

1-حقل الإنسان:

-الصبا:

وإنّي لأصبُوا لِلصبَا كلّمَا سرَتْ و للنَّجْمِ مَهْمَا كَانَ لِلنَّجْمِ إِسْـرَاءُ[25]

-البشر:

وَ هَلْ لي زَمَانٌ أَرْتَجِي فِيهِ عَوْدَةً إِلَيْكَ وَوَجْهُ البَشَر أَزْهَرُ وضَّـاءُ[26]

-الأذن، العين:

تمُرُّ اللّيالي ليلةً بعد ليلـة و للأذن إصغاءُ و للعين إكـلاءُ[27]

-عمر الأنس

فَيَا مَنْزلاً نَالَ الرَّدَى منْهُ مَا اشْتَهَى ثرَى هَلْ لعُمْر الأُنْس بَعْدَك إنْسَاءُ[28]

ابن الحكيم، الجد، الأسرة، الصحابة، الأهل

وَ لَوْلاَ جوَارُ ابنَ الحَكيم مُحَمَّـد لَمَا فَاتَ نَفْسي منْ بَني الدَّهْر إقْمَاءُ[29]

كَذَلكَ جَدِّي في صحابي وَ أُسْرَتي وَ مَنْ لي به منْ أهْلَ وُدِّي إرْفَاءُ[30]

قاطنون

يُطَنِّبُ فِيهَا عَائِثُونَ وَ خُـرَّبٌ و يَرْحَلُ عَنْهَا قَاطِنُونَ وَ ثُنَّـاءُ[31]

الأملاء

وَ كَمْ قَائِلٍ ثَفَنَّى غَرَامًا بِحُبِّهـا وَ قَدْ أَخْلَفَتْ مِنْها مَلاءٌ وَ أَمـلاءُ[32]

المثناء

أَطْرُق الدَّرْبَ الذِي كُنْتُ طارقًا لِعَادٍ وَ بَدْرِ الأُفُقِ أَسْلَعُ مِثْناءُ[33]

2-حقل المكان

تلمسان

سَل الرِّيحَ إنْ لَمْ تَسْعد السُّفْـنُ فَعِنْدَ صَباهَا مِنْ تِلِمْسَان أَنْبَـاءُ[34]

الدار، درب مغيلة

وَ يَا دَارِيْ الأُولَىْ بِدَرْبِ مَغِيلَةٍ وَ قَدْ جَدَّ عَيْثٌ فِيْ بَلاَهَا وَ إِرْدَاءُ[35]

المنزل

فَيَا مَنْزِلاً نالَ الرَّدَى مِنْهُ ما اشْتَهَى ثُرَى هلْ لعُمْر الأُنْسِ بَعْدَكَ إنْسَاءُ[36]

الدرب

لمْ أَطْرُق الدَّرْبَ الذي كنتُ طارقا لعَادٍ وَ بدْرِ الأفُقِ أَسْلَعُ مِثْناءُ[37]

3-حقل الحيوان

النيب

أَحِنُّ لَهَا مَا أَطَّتِ النِّيبُ حَولَها و ما عاقَها عَنْ مَوْرِدِ المَاءِ أَظْماءُ[38]

الكلاب

أَطِيفُ فيه حتى تَهرَّ كلابُـهُ و قد نام عُسَّاسٌ و هوَّم سُبَّاءُ[39]

4-حقل الطبيعة

الريح

سَل الرِّيحَ إنْ لَمْ تَسْعد السُّفْـنُ فَعِنْدَ صَباهَا مِنْ تِلِمْسَان أَنْبَـاءُ[40]

الشمس، النجوم، البدر

وَ إنِّي لأَصْبُوا للصَّبَا كُلَّمَا سرت وَ للنَّجْم مَهْمَا كَانَ للنَّجْم إسْرَاءُ

وَلَمْ أُطْرُق الدَّرْبَ الذِي كُنْتُ طَارِقًا لعَادٍ وَ بَدْرُ الأُفُق أسْلَعٌ مشْنَاءُ[41]

الضوء

وَ هَلْ لي زَمَانٌ أرْتَجِي فِيهِ عَوْدَةً إلَيْكَ وَوَجْهُ البَشَر أزْهَرُ وضَّـاءُ[42]

الشجر

و أسْتَجْلِبُ النومَ الغِرارَ و مَضْجَعيْ قِتَادٌ كَمَا شَاءَتْ نَواهَا وَ سلاّءُ[43]

الغيث

وَ يَا دَارِيْ الأُولَىْ بِدَرْبِ مَعْيلَةٍ وَ قَدْ جَدَّ عَيْثٌ فِيْ بَلاَهَا وَ إرْدَاءُ[44]

البرق:

وَ فِي خَفَقَانِ البَرْقِ مِنْهَا إشارَةٌ إليكَ بِما تَنْمَى إلَيْكَ وَ إيمَـاءُ[45]

5-حقل الزمن

الليالي، ليلة، عشرة أعوام

تَمُرُّ اللّيالي ليلةً بعد ليلـةٌ و للأُذن إصغاءُ و للعين إكـلاءُ

لعشرةَ أعوام عليها تَجَرَّمَـتْ إذا ما مَضَى قَيْظٌ بِها جاءَ إهرَاءُ[46]

اليوم

و أُهدِي إلَيْهَا كُلَّ يَوْمٍ تَحِيَّـةً وَ فِي رَدِّ إهْدَاءِ التَّحِيَّةِ إهْـدَاءُ

وأستجلِبُ النَّوْمَ الغِرَارَ وَمَضْجَعِي قِتَادٌ كَمَا شَاءَتْ نَواهَا وَ سُـلاَّءُ

يُردِّدُها عُيَّابُها الدَّهْرَ مِثْلَمَا يُرَدِّدُ حرْفَ الفَاءِ فِي النُّطقِ فَأفَاءُ[47]

5-حقل الحرب

رماح الناهبين، ، الملك

كأنَّ رِمَاحَ النَّاهِبِينَ لِمُلْكِهَـا قِداحٌ وَ أمْوَالَ المَنَازِلِ أبْـدَاءُ

لَعَشْرَةَ أعْوَامٍ عَلَيْهَا تَجَرَّمَـتْ إذَا مَا مَضَى قَيظٌ بِها جَاءَ إهْرَاءُ[48]

- **-الصور الشعرية:** ومن الصور الشعرية في رثاء تلمسان نذكر:

1-الصورة البصرية

فمن صور"ابن خميس" البصرية قوله:

لَعَشْرَةَ أعْوَامٍ عَلَيْهَا تَجَرَّمَـتْ إذَا مَا مَضَى قَيْظُ بِهَا جَاءَ إهْرَاءُ[49]

2-الصورة الذوقية

فما لِشَرابِي فِي سِوَاكِ مَزَارَةٌ وَ لاَ لِطَعَـــامِي دُونَ مَائَـــكَ إمْـــراءُ[50]

ويبدو أن "ابن خميس" كان كثير الصيام.

3-الصورة السمعية

فغلبت على الشاعر أصوات الطبيعة من ريح و برق وحمام وطيور يقول:

سَل الرّيحَ إنْ لَمْ تسْعدُ السُّفْنُ أنْواءُ فَعندَ صَباها من تلمسانُ أنْباءُ
أُحنُّ لها ما أطَّت النّيبُ حَولَها و ما عاقَها عَن مورد الماء أظْماءُ
تَمُرُّ اللّيالي ليلةً بعد ليلـةٌ و للأُذن إصغاءُ و للعين إكـلاءُ
و أُهدي إليها كلَّ يوم تحيــة و في رد إهداء التحية إهـداءُ
و إني لَمُشتاقٌ إليها و مُنْبــئ ببَعْض إشتياقي لو تمكَّنَ إنْبَاءُ[51]

4- الصور اللمسية:

يقول:

و أستجلبُ النومَ الغرارَ و مَضْجَعي قتادٌ كما شاءتْ ثواها و سلاّءُ[52]

5- الصور البيانية:

الإستعارة المكنية:

يشخص شاعرنا في هذه الأبيات الريح فيسأله عن أخبار تلمسان، يقول :

سَل الرّيحَ إنْ لَمْ تسْعد السُّفْنُ أنْواءُ فَعندَ صَباها من تلمسان أنْباءُ[53]

و يصورها لنا وكأنها صديقته وهو يهدي إليها كل يوم تحية، يقول:

وأهدي إليها كل يوم تحية وفي رد إهداء التحية إهداء[54]

ثمّ يجعلها خيالا من لديها يمرّ به، ففي مره إبراء من حنينه وشوقه، يقول :

لعل خيالا من لَديْها يمرُّ بــي ففي مَرّه بي من جَوى الشوق إبراءُ[55]

ولا تخلو المدونة الشعرية من هذه الأمثلة والغرض من هذا هو التوضيح.

التشبيه :

من أمثلة في التشبيه، نذكر :

و أستجلبُ النومَ الغرارَ و مَضْجَعي قتادٌ كما شاءتْ ثواها و سلاّءُ[56]

شبه في هذا البيت مضجعه بالقتاد.

ويقول أيضا: مشبها رماح الناهبين بالقداح:

كأنَّ رماحَ الناهبينَ لمُلْكهَـا قداحٌ و أموالَ المنازل أبْـدَاءُ[57]

•

لموسيقي الشعرية:

التصريع

سَلِ ا لرِّيحَ إنْ لَمْ تسْعِد السُّفْنُ أنْواءُ فَعِنْدَ صَبَاهَا مِنْ تِلِمْسَان أنْبَـاءُ[58]

في البيت الأول بين أنواء- أنباء

الجناس

تمُرُّ اللَّيَالِي لَيلَةً بَعْدَ لَيْلَـةٌ و لِلأُذُن إصْغاءُ و لِلعَينِ إكْـلاءُ

وَ إنّي لأصبُوا لِلصَّبا كلّمَا سرَتْ وللنَّجْمِ مَهْمَا كَانَ لِلنَّجْمِ إسْـرَاءُ
و أُهدِي إِلَيْهَا كُلَّ يَوْمٍ تحِيَّـــــــة وَ فِي رَدِّ إِهْدَاءِ التَّحِيَّةِ إِهْدَاءُ
وَ إِنِّي لَمُشتاقٌ إِلَيها و مُنْبِـئٌ ببَعْضِ إِشْتِيَاقِي لَوْ تمَكَّنَ إِنْبَاءُ
وَ كَمْ قَائِلٍ تفَنَّى غَرَامًا بِحُبِّهـا وَ قَدْ أَخْلَفَتْ مِنْها مَلاءٌ وَ أَمـلاءُ
وَمِنْ عَجَبِ أَنْ طَالَ سُقْمِي و نَزْعُهَا و قُسِّمَ أَضْناءُ[59] عَلَيْنَا وَ أَطْنَـاءُ[60]
يُردِّدُها عُيَّابُها الدَّهْرَ مِثْلَمَـا يُرَدِّدُ حرْفَ الفَاءِ فِي النُّطقِ فَأفَاءُ
أمَا آنَ أَنْ يُحْمَى حِمَاكِ كَعَهْدِهِ وَ يَجْتَالُ أَحْمَاسٌ عَلَيْهِ وَ أَحْمَـاءُ[61]

ففي كل بيت ذكر الشاعر الجناس بنوعيه، وهو كما يلي: إصغاء، إكلاء – أصبوا، الصبا – إهداء، إهداء- مشتاق، اشتياقي – ملاء، أملاء –أضناء، أطناء الفاء، فأفاء. يُحْمَى حِمَاكِ.

تكرار القافية

سَلِ الرِّيحَ إنْ لَمْ تسْعِدُ السُّفْنُ أنْواءُ فَعِنْدَ صَبَاهَا مِنْ تِلِمْسَانُ أنْبَـاءُ
وَ فِي خَفَقانِ البَرْقِ مِنْهَا إشارَةٌ إليكَ بِما تنْمَى إِلَيْكَ وَ إِيمَـاءُ
تَمُرُّ اللَّيَالِي لَيلَةً بَعْدَ لَيْلَـةٌ و لِلأُذُنِ إِصْغاءُ و لِلعَينِ إِكْلاءُ[62]
وَ إِنّي لأصبُوا لِلصَّبا كلّمَا سرَتْ و للنَّجْمِ مَهْمَا كَانَ لِلنَّجْمِ إِسْـرَاءُ
و أُهدِي إِلَيْهَا كُلَّ يَوْمٍ تحِيَّـةً وَ فِي رَدِّ إِهْدَاءِ التَّحِيَّةِ إِهْـدَاءُ
و أستجلِبُ النَّوْمَ الغِرَارَ وَ مَضْجَعِي قِتَادٌ كَمَا شَاءَتْ نَواهَا وَ سُـلاَّءُ
لَعَلَّ خَيَالاً مِنْ لَديْها يمرُّ بِـي فَفي مَرِّه بِي مِن جَوى الشَّوْقِ إِبْرَاءُ
وَ إِنِّي لَمُشتاقٌ إِلَيها و مُنْبِـئٌ ببَعْضِ إِشْتِيَاقِي لَوْ تمَكَّنَ إِنْبَـاءُ
وَ كَمْ قَائِلٍ تفَنَّى غَرَامًا بِحُبِّهـا وَ قَدْ أَخْلَفَتْ مِنْها مَلاءٌ وَ أَمـلاءُ[63]
لَعَشْرَةَ أَعْوَامٍ عَلَيْهَا تجَرَّمَـتْ إِذَا مَا مَضَى قَيظٌ بِها جَاءَ إِهْرَاءُ[64]
يُطَنِّبُ فِيهَا عَائِثُونَ وَ خُـرَّبٌ و يَرْحَلُ عَنْهَا قَاطِنُونَ وَ ثُنَّـاءُ
كأنَّ رِمَاحَ النَّاهِبِينَ لِمُلْكِهَـا قِداحٌ وَ أَمْوَالَ المَنَازِلِ أَبْـدَاءُ[65]
فَلاَ تبْغِينَ فِيهَا مُناخًا لرَاكِـبٍ فَقَدْ قَلَصَتْ مِنْهَا ظِلاَلُ وَ أَفْيَـاءُ
وَ مِنْ عَجَبِ أَنْ طَالَ سُقْمِي و نَزْعُهَا و قُسِّمَ أَضْناءُ[66] عَلَيْنَا وَ أَطْنَاءُ[67]
يُردِّدُها عُيَّابُها الدَّهْرَ مِثْلَمَـا يُرَدِّدُ حرْفَ الفَاءِ فِي النُّطقِ فَأفَاءُ
فَيَا مَنْزِلاً نَالَ الرَّدَى مِنْهُ مَا اشْتَهَى ثَرَى هَلْ لِعُمْرِ الأُنْسِ بَعْدَكَ إِنْسَـاءُ
لمْ أَطْرُق الدَّرْبَ الذِي كُنْتُ طارقًا لِعَادٍ وَ بَدْرِ الأُفُقِ أسْلَعُ مِشْنَاءُ[68]
أطِيفُ فِيهِ حَتَّى تهرّ كِلابُـهُ وَ قَدْ نَامَ عُسَّاسٌ وَ هَوَّم سُبَّـاءُ
فَمَا لِشرَابِيْ فِيْ سِوَاكِ مَزَارَةٌ وَ لاَ لِطَعَامِيْ دُونَ مَائَكَ إِمْـرَاءُ
وَ يَا دَارِيْ الأُولَىْ بِدَرْبِ مَغِيلَةٍ وَ قَدْ جَدَّ عَيْثٌ فِيْ بَلاَهَا وَ إِرْدَاءُ
أمَا آنَ أَنْ يُحْمَى حِمَاكِ كَعَهْدِهِ وَ يَجْتَالُ أَحْمَاسٌ عَلَيْهِ وَ أَحْمَـاءُ
أمَا آنَ أَنْ يَعْشُوْ لِنَارِكِ طَارِقٌ جَنِيْبٌ لَهُ رَفْعٌ إِلَيْكِ وَدِئْـدَاءُ
أُحِنُّ لَهَا مَا أَطَّتِ النِّيْبُ حَوْلَهَا وَ مَا عَاقَهَا عَنْ مَوْرِدُ المَاءِ أَظْمَاءُ

كَذَلِكَ جَدِّيْ فِيْ صِحَابِيْ وَ أُسْرَتِيْ وَ مَنْ لِيْ بِهِ مِنْ أَهْلَ وُدِّي إِرْفَاءُ[69]
وَ لَوْلاَ جِوَارُ ابْنَ الحَكِيْمِ مُحَمَّدِ لِمَا فَاتَ نَفْسِيْ مِنْ بَنَىْ الدَّهْرُ إِقْمَاءُ
إِلَيْكَ أَبَا عَبْدَ الإِلَهِ صَنَعْتُهَـا لُزُومِيَّةً فِيْهَا لِوَجْدَىْ إِفْشَـــاءُ
مُبَرَّأَةً مِمَّا يَعِيْبُ لُزُوْمَهَـا إِذَا عَابَ إِكْفَاءٌ سِوَاهَا وَ إِيْطَاءُ[70]

لعل أول ما يلفت انتباهنا ونحن نقرأ هذه المدونة هو التوازن الإيقاعي في آخر أبياتها، والمتصل بقافية ذات الوزن الواحد:

أَنْبَـاءُ، إِيمَـاءُ، إِكْلاءُ، إِسْـرَاء، إِهْـدَاءُ، إِبْرَاءُ، إِنْبَاءُ، أَمـلاءُ، إِهْـرَاءُ، أَبْـدَاءُ، أَفْيَـاءُ أَطْنَـاءُ، إِنْسَـاءُ، مِشْنَاءُ، إِمْـرَاءُ، إِرْدَاءُ، أَحْمَاءُ، دِئْـدَاءُ، أَظْمَاءُ، إِرْفَاءُ، إِقْمَاءُ، إِيْطَاءُ.

تكرار الكلمة: تكررت في القصيدة عدة كلمات، وقد تضافرت جميعها لتؤكد حالة ابن خميس، وإلى جانب ذلك يلاحظ أن هذا التكرار أكسب النص نغما موسيقيا تطرب له الأذن: مثل: وَ إِنِّي لأَصبُوا لِلصَّبا، للنَّجْمِ مَهْمَا كَانَ لِلنَّجْمِ، أُهدِي إِلَيْهَا كُلَّ يَوْمٍ تَحِيَّـة، فِي رَدِّ إِهْدَاءِ التَّحِيَّةِ إِهْـدَاءُ، وقُسِّمَ أضْنَاءٌ عَلَيْنَا وأَطْنَـاءُ....

تكرار الصوت: وقد قمنا بإحصاء الأصوات الواردة في البيت الأول، فتحصلنا على هذا الجدول الآتي:

الأصوات	صفاتها	مخارجها	عـــــدد تكرارها
اللام	متوسط بين الشدة و الرخاوة ، مجهور.	ذلقي	5
السين	صـــوت مهمـــوس، يختلـــف بـــبعض الاختلافات في مخرجه باختلاف اللهجات.	لثوي	4
النون	مجهور متوسط بين الشدة والرخاوة	ذلقي	7
الهمزة	شديد انفجاري	حلقي	6

استبدت الأصوات المجهورة في الصدارة، لأن الشاعر يبكي بلده

الموسيقى الخارجيـة:

يعد البناء الموسيقي من بأرز الأمور التي يقوم عليها الشعر وخاصة الوزن فهو:« أعظم أركان حدّ الشعر، وأولاها بها خصوصية»[71]، وقد استدعى شاعرنا لهذه القصيدة البحر الطويل:

سَلِ الرِّيْحَ إِنْ لَمْ تَسْعد السُّفْنُ أَنْوَاْءُ فَعِنْدَ صِبَاهَا مِنْ تِلِمْسَان أَنْبَـاْءُ[72]
فَعُوْلُـنْ /مَفَاْعِـيْلُنْ /فَعُـوْلُنْ / مَفَاعِيْلُـنْ فَعُوْلُ / مَفَاْعِيْـلُنْ / فَعُوْلُنْ/ مَفَاعِيْلُـنْ

القصيدة همزية من البحر الطويل، و تفعيلاته واضحة : فَعُوْلُنْ مَفَاْعِيْـلُـنْ فَعُوْلُنْ مَفَاْعِيْلُنْ.

جاءت قافيتها مطلقة ومردفة لأنها انتهت بمتحرك. وقد أشار"ابن خميس" إلى أن هذه القصيدة لزومية بقوله:

إليكَ أبا عَبْد الإلَه صَنَعْتُهَـا لُزُوميَّةً فيها لوَجْدىَ إفْشَـاءُ[73]

وقد علّق عليها **"طاهر توات"** بقوله«و يسمي الشاعر قصيدته بأنّها لزومية لكن الأستاذ محمود الربداوي لا يرى فيها لزوم ما لا يلزم، وإنما هي ظروف القافية والتزم الشاعر بلزوم ما لا يلزم،و ذلك بدون فقد للمعنى أو الفكرة التي كان يريدها»[74].أما رويها فهو حرف **"الهمزة"**: صوت شديد، انفجاري[75].

وفي الأخير نخلص إلى أهم النّقاط التي توصّلنا إليها من خلال هذا العمل وهي:

- تعلّق الشاعر الجزائري القديم بطبيعة بلاده وبعاداتها وتقاليدها، وهذا ما يعرف بالالتزام والإخلاص.
- أعطى ابن خميس صورة حية لمعاناة بلدته في الفترة الزيانية.
- وقد استدعى الأمر استخدام البحر الطويل مما ساهم في البناء الداخلي للنص.

الهوامش:

(1)- قادة عقاق، دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر ، منشورات إتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، دط ، 2001 ص 22

(2)- محمد قميحة ،الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط1 ، 1981 ، ص 357

(3)- ينظر : قادة عقاق ، دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر ، ص 177

(4)-إسماعيل العربي ، المدن المغربية ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، دط ، 1984 ، ص 7

(5)- ياقوت الحموي، معجم البلدان، م4 دار صادر، بيروت، دط، دت، ص 21

(6)-بكر بن حماد التاهرتي ، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي ، جمعه و شرحه: محمد بن رمضان شاوش، المطبعة العلوية ، مستغانم ، ط1 ، (1385ه – 1966م) ، ص 61.

(7)-المصدر نفسه ، ص80

(8)-بكر بن حماد التاهرتي ، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي ، ص81

(9)- سورة الفجر، الأية 14

(10) – معجم البلدان، م4، ص 21

(11)- محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، تقديم: عبد الجليل مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 2006، ص 56.

(12) – شوقي ضي، تاريخ الأدب العربي "عصر الدول و الإمارات :الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا، السودان" ، ج10 ، دار المعارف، القاهرة، ط، 1995، ص122

(13)- ينظر:المصدر نفسه، ص ن

(14)- رابح بونار، المغرب العربي، تاريخه وثقافته، ج2، الشركة الوطنية للنشر التوزيع، الجزائر، ط2، 1981، ص285

(15)- محمد الطمار ، تاريخ الأدب الجزائري ، ص 124

(16)- نفسه ، ص125

(17)- نفسه ، ص 125

(18)-نفسه ، ص ن

(19)-بسام العسلي، جهاد شعب الجزائر – الجزائر والحملات الصليبية- دار النفائس، بيروت، ط1، 1400ه-1910، ص(193-192)

(20)-نفسه ، ص190

(21)-نفسه، ص193

(22)— آغا عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر،ج1، تح: يحيى بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، دط، 1989، ص186

(23)-نفسه، ص ن

(24)- المنداسي، الديوان، تح: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، دط، 1976، ص89

(25) - أحمد المقري، أزهار الرياض في أخبـار عيـاض، ج2، طبعـه وحققـه وعلـق عليـه: مصـطفى السـقا/ ابـراهيم الأبياري/ عبد الحفيظ شلبي، مطبعة فضالة، دط، دت، ص 337
(26)-نفسه، ص 338
(27)-نفسه، ص337
(28) - أحمد المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، ج2، ص338
(29) –نفسه، ص339
(30)- نفسه، ص 339
(31)- نفسه، ص338
(32)-نفسه، ص337
(33)-نفسه، ص338
(34)- نفسه، ص 336
(35)- نفسه، ص 339
(36)- نفسه، ص338
(37)- نفسه، ص 338
(38)- نفسه، ص 339
(39)- نفسه، ص 383
(40)- نفسه، ص 336
(41)- نفسه، ص 338
(42)-نفسه، ص ن
(43)-نفسه، ص337
(44)- نفسه، ص 339
(45)-نفسه، ص337
(46)- نفسه، ص ن
(47)-نفسه، ص 337
(48)-نفسه، ص ن
(49 نفسه، ص ن
(50- نفسه، ص 338
(51)- نفسه، ص (336 ، 337)
(52)- نفسه، ص 337
(53)- نفسه، ص 336
(54) - نفسه، ص 338
(55)- نفسه ، ص 337
(56)- نفسه، ص ن
(57)- نفسه ، ص ن
(58)-نفسه، ص336
(59)- الأضناء : جمع ضنى ، و هو المرض
(60)- الأطناء : جمه طنء ، و هو الداء
(61)-أحمد المقري ، أزهار الرياض في أخبار عياض، ج، ص339
(62) – أكلأ بصره في الشيء : ردده فيه مصوبا و مصعدا
(63)- الأملاء : جمع ملأ ، و هم أشراف الناس
(64)- هرأه البرد و أهرأه : اشتد عليه حتى كاد يقتله
(65)- الأبداء : جمع بدء ، و هو النصيب
(66)- الأضناء : جمع ضنى ، و هو المرض
(67)- الأطناء : جمع طنء ، و هو الداء
(68)- المشناء : الذي يبغضه الناس

(69) – الإرفاء : الجنوح و الدنو

(70) – أحمد المقري ، أزهار الرياض في أخبار عياض ، ج 2 ، ص (340-336)

(71)- ابن رشيق، العمدة في نقد الشعر، شرح وضبط: عفيف نايف حاطوم، دار صادر، لبنان، ط1، 2003، ص120

(72)- أحمد المقري ، أزهار الرياض في أخبار عياض ، ج2، ص 336

(73)- نفسه، ص 340

(74)- طاهر توات، ابن خميس شاعر تلمسان الأكبر، دار الأوطان، الجزائر، ط1،2011، ص (586-587)

(75)- ينظر:ابراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مطبعة نهضة مصر، دط، دت، ص 77